

قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان

أبو العباس الإربلي الشافعي - 681/608 هـ

أنا واللّه هالكٌ
أو أرى القامة التي
آيس من سلامتي
قد أقامت قيامتي

لابن خلكان رحمه الله

هذين البيتين كان يكرهما من الليل وقبل طلوع الفجر، وهو يدور حول البركة في بيت العادلية. فمن هو ابن خلكان صاحب الكتاب الشهير «وفيات الأعيان»؟

مولده:

ولد في إربل 608 هـ، وإربل هذه تقع في شمال العراق، أما خلكان: فقد قيل أنها قرية من أعمال إربل، وقيل: اسم لبعض أجداده، وقيل: ابن خلكان، فارسية جاءت عندما سُئل عن نسبه فقال: خل كان، يعني اسأل عن الرجل ودعك من السؤال عن آبائه وأجداده، ووالده الشهاب محمد، من البيوت العريقة والمعروفة بين الناس، هكذا قال الاسنوي في طبقات الشافعية وقد ترجم لوالده الذي توفي عام 610 هـ. قدم ابن خلكان إلى بلاد الشام في شبوبيته بعد أن تفقه ودرس على بعض علماء الموصل وهذه من العناية الإلهية التي رافقته منذ صغره، فاحضن الأسري له من الأهمية البالغة والتي تسهم في توجيهات الأبناء في الريعان من الشباب، والله نسأله التوفيق.

نشأته العلمية:

سمع ابن خلكان «صحيح البخاري» في إربل من محمد بن هبة الله بن مكرم الصوفي، وأجاز له المؤيد الطوسي وعبد العزيز الهروي وزينب الشعرية. وتفقه بالموصل على كمال الدين ابن يونس، وأخذ بحلب عن القاضي بهاء الدين ابن شداد وغيرهما.

روى عنه:

المزي والبرزالي والطبقة، وكان ابن خلكان شديد الولع بالقراءة والعلم، كان فاضلاً بارعاً متفنناً وعالماً بالمذهب حسن الفتاوى جيد القريحة بصيراً بالعربية علامة في الأدب والشعر وأيام الناس.

أما عن رحلاته:

دخل مصر وسكنها مدة وتأهل بها وناب بها في القضاء عن القاضي بدر الدين السنجاري ثم عاد إلى الشام وتولى القضاء فيها، ثم عزل سنة 669 هـ وتولى عنه القضاء القاضي عز الدين ابن الصائغ، ثم عُزل ابن الصائغ بعد سبع سنين، فقدم من مصر ودخل دمشق دخولاً لم يدخله أحد غيره، من الاحتفال والزحمة، وكان يوماً مشهوداً وجلس في منصبه وتكلم الشعراء، ومنهم قال فيه:

أنت في الشام مثل يوسف في مصر وعندي أن الكرام جناس
ولكلٍ سبعٌ شداً وبعد السبع عامٌ يغاثُ فيه الناس
وقال سعد الدين الفارقي:

أذقت الشام سبع سنين جدياً غداة هجرته هجرًا جميلاً
فلما زرته من أرض مصرٍ مددت عليه من كفيك نيلاً

وهذا الاحتفال إن دل فقد يشير إلى خُلقه الحسن وحلمه وصبره في أموره مع الناس، وكان كريماً جواداً، ثم بعد مدة عزل مرة أخرى بابن الصائغ فقد كان منصب القاضي بينه وبين ابن الصائغ دولاً يُعزل مرة ويتولى هذا، ثم يُعزل هذا ويتولى هذا...

ومن وظائفه وأعماله:

التدريس، فقد درس في مدارس كثيرة في الشام، لم يجتمع لأحد غيره في عددها، إلى أن لم يبق معه في آخر عمره سوى مدرسة الأمينية، وبهد ابنه كمال الدين موسى المدرسة النجيبية جوار النورية.

وقيل أنه عمل تأريخاً للملك الظاهر ووصل نسبه بجنكيز خان، فلما وقف عليه قال: هذا يصلح أن يكون وزيراً، اطلبوه، فطلب وبلغ الخبر صاحب بهاء الدين ابن حنا فسعى في القضية إلى أن أبطل ذلك، وناسى السلطان عليه، فبقي في القاهرة في عزلة وفاقة ولا يجنو عليه صاحب، حتى فاوضه الدوادار وقال له: إلى متى تبقى على هذه الحالة؟ فجهزه إلى دمشق وإلى منصب قاضي القضاة فيها.

وابن خلكان كان له منظومات شعرية كثيرة وقد جاءت في كتابه «وفيات الأعيان» منها:

وسـربِ طبـاءٍ في غدِيرٍ تخـالـعوا
بدورٌ بأفق المـاء تـبدو وتـغـرب
يقول عـذوكي والغـرام مصـاحـي
أمالـك عن هـذي الصـبابة مـذهـب
وفي دمـك المـطـول خـاضوا كـما تـرى
فقلـت لـه: ذرهم يـخـوضوا ويـلـعبوا
ومن مـنـظـومـه:

روحي بك يا معذبي قد شقيت
في جنب رضاك في الهوى ما لقيت
لا تعجل بالله عليها فعسى
أن تدركها برحمة إن بقيت

أما عن أقوال العلماء في ابن خلكان فلتقرأ التالي:

قال الشيخ تاج الدين الغزاري في تاريخه: كان ابن خلكان قد جمع حسن الصورة، فصاحة المنطق، غزارة العلم، نزاهة النفس.

وقال الذهبي: كان إماماً، فاضلاً، عارفاً ومتقناً بالمذاهب، حسن الفتاوى، جيد القريحة، بصير بالعربية، كثير الاطلاع، كريماً، جواداً، جمع كتاباً نفيساً في «وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان».

أما ابن كثير فقد قال: هو أحد الأئمة الفضلاء والسادة العلماء، والصدور الرؤساء، فهو أول من جدد في أيامه قضاة القضاة من سائر المذاهب، فاشتغلوا بالأحكام بعد ما كانوا نواباً له.

ولكن انتقده ابن كثير وغيره من العلماء لعدم تجريحه لابن الراوندي الزنديق، فقد ترجم له في الوفيات، ولم يذكر له أي تجريح، رغم أن الراوندي عرف بالزندقة بين الناس.

وفي المقابل فقد أجمع العلماء عند ذكر محاسن ابن خلكان بصفات لا يتصفها إلا من نهي النفس عن الهوى، وابتعد عن شر منزلق النفس، فقد كان لا يجروُّ أحد على الغيبة أمامه أو الحديث عن أحد بسوء. وفي هذا السياق وردت قصة في المصادر تقول: أن رجل جاءه فحدثه في أذنه أن عدلين في مكان يشربان الخمر، فقام من مجلسه ودعا برجل، وقال: اذهب إلى مكان كذا، وأمر من فيه بإصلاح أمرهما وإزالة ما عندهما، ثم عاد فجلس في مكانه، إلى أن علم أن نقيبهم قد حضر، فدعا بذلك الرجل، وقال: أنا أبعث معك النقيب فإن كنت صادقاً ضربتهما الحد، وإن كنت كاذباً أشهرك، وقطعت لسانك، وجهاز النقيب معه، فلم يجدوا صاحب البيت وليس عنده شيء من ذلك، فأحضر الدرّة وهدده، فشفع النقيب فيه، فقبل شفاعته، ثم أحضر مصحفاً وحلفه أن لا يعود بقذف عرض مسلم.

ومن صفاته التي اشتهر فيها إضافة إلى بغضه للغيبة وعدم السماح لأحد بذكر أخيه بسوء، صفة الكرم والجود، وها هو ابن جعوان يقول:

لما تولى قضاء الشام حاكمه قاضي القضاة أبا العباس ذو الكرم

من بعد سبع شداد قال خادمه ذا العام فيه يُغاث الناس بالنعيم

أما عن كتابه الشهير والذي كتبه بعد قراءة مئات الكتب، وتلخيص كل كتاب، ثم التأمل العميق بسير كثير من العظماء علماء أمراء شعراء... وقرأ ما يقول في مقدمة وفيات الأعيان: "هذا مختصر في التاريخ، دعاني إلى جمعه أني كنت مولعاً بالاطلاع على أخبار المتقدمين من ألي النباهة وتواريخ وفياتهم وموالدهم، ومن جمع منهم كل عصر،... ولم أزل على ذلك حتى حصل عندي منه مسودات كثيرة في سنين عديدة، وغلق على خاطري بعضه فصرت إذا أصبحت إلى معاودة شيء منه لا أصل إليه إلا بعد التعب في استخراجها، لكونه غير مرتب، والتزمت فيه تقديم من كان أول اسمه الهمزة، ثم من كان ثاني حرف من اسمه الهمزة أو ما هو أقرب إليها، على غيره فقدمت إبراهيم على أحمد، لأن الباء أقرب إلى الهمزة من الحاء،... وذكرت من محاسن كل شخص ما يليق به من مكرمة،... وسميته كتاب "وفيات الأعيان، وأبناء

أبناء الزمان، مما ثبت بالنقل أو السماع أو أثبتته العيان" ليستدل على مضمون الكتاب بمجرد العنوان".

وفاته:

توفي في المدرسة النجيبية بإيوانها، في يوم السبت آخر النهار، 26 رجب 681 هـ. وشيعه خلق كثير، ودفن رحمه الله في مقبرة الجوعية بسفح قاسيون.

المراجع:

- العبر في خبر من / للذهبي
- شذرات الذهب / لابن عماد
- البداية والنهاية / لابن كثير
- طبقات الشافعية / لاسنوي

